كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

دور علمـــاء العـرب فى علـم اللـــغة
{ ابن جنى نموذجاً }

إعداد

د/ سلامه عمر محمد عبد الرحيم

مدرس أصول اللغة في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر ٢٠١١)

كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

دور علمـــاء العـرب فى علـم اللـــغة
{ ابن جنى نموذجاً }

إعداد

د/ سلامه عمر محمد عبد الرحيم

مدرس أصول اللغة في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر ٢٠١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذى خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على خير من نطق فأبان ، وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ،،،

فاللغة من أهم ما من الله (ﷻ) به على الإنسان ، إذ هى أداة الاتصال ووسيلة البيان ، فلابد لكل مجتمع من لغة يتواصل بها أفراده .

لذا فالدراسة فى اللغة من أهم الدراسات ، وقد كان الاهتمام باللغة والعناية بها من أقدم الدراسات عند كل الأمم .

وقد ظهر فى القرن التاسع عشر علم يطلق عليه علم اللغة ، وقد تم نضجه فى القرن العشرين على يد عالم اللغة دى سوسير .

واللغة التى يبحث فيها هذا العلم ، ليست هى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية ، وإنما هى اللغة كظاهرة اجتماعية ، وإنسانية عامة ، فموضوع علم اللغة كما يرى دى سوسير هو اللغة معتبرة فى ذاتها ومن أجل ذاتها .

والبحث هنا يجيب عن سؤال هل النظرة العامة الواسعة للغة من مستحدثات المنهج الغربى ؟ أم أن هذه النظرة يرجع تاريخها إلى الباحثين فى العربية أو بلفظ آخر هل كان للعرب إسهامات فى علم اللغة ؟

لذا فقد وجهت وجهى إلى علماء اللغة العرب الأقدمين لأرى إلى أى مدى

اهتم العرب بالنظر إلى اللغة بوجه عام .

وقد اخترت ابن جنى نموذجا لعلماء العرب ؛ لأن هذا العالم كان له جهد بارز فى دراسة اللغة ، فقد فتح ابن جنى فى العربية أبوابا لم يتسن فتحها لسواه، ووضع أصولا فى الاشتقاق ، ومناسبة الألفاظ للمعانى ، وإهمال ما أهمل من الألفاظ إلى غير ذلك [١] ، ولذا فقد أطلق عليه : " عبقرى اللغة " .

يقول د / عبد الله ربيع محمود : " وهل أخذ المنهج الحديث مثل هذه الأفكار – يقصد الأفكار والنظرات العامة فى اللغة بوجه عام – إلا من ابن جنى ونظرائه من علماء العربية ، إن لابن جنى كثيرا من هذه النظرات العامة تتناثر على الأخص فى خصائصه وفى سر صناعة الإعراب ... وابن جنى ليس بدعا فى هذا ، فالذى لا شك فيه أنه أخذ كثيرا مما تناوله – وكما يصرح أحيانا – عن شيوخ العربية الأوائل ... وفى ظنى أنه لولا توقف تيار الإبداع فى البحث اللغوى بعد ابن جنى لرأينا من ذلك عجبا عجابا ولكان المسلمون هم أصحاب علم اللغة العام بفكر معتدل ونظر صائب " . [٢]

ويقول د / محمد يوسف حبلص : " ويعد فهم ابن جنى لكثير من القضايا العامة فى اللغة فهما يسبق عصره ، وهى رؤية رشيدة يغمض عن رؤيتها الحاقدون " . [٣]

والبحث الذى بين يدى القارئ : (**دور علماء العرب فى علم اللغة "ابن**

---

[١] مقدمة الخصائص : ١ : ٣١ وما بعدها ، ومن الفروق الدلالية عند ابن جنى (حولية كلية اللغة العربية بأسيوط – العدد ٢٨ – للدكتور/ عبد الهادى أحمد محمد السلمون)، ص ٥٠٥.

[٢] من ملامح المنهج العلمى ، ص ٢٤ ، ٢٥.

[٣] من أسس علم اللغة ، ص ٢١٨.

جنى نموذجا ") أحاول فيه قراءة بعض تراث ابن جنى كالخصائص وسر صناعة الإعراب لاستجلاء دوره فى مجال علم اللغة .

وكان منهجى فى البحث هو بيان رأى ابن جنى فى بعض قضايا علم اللغة التى عرضها فى كتابيه : الخصائص وسر صناعة الإعراب ، ثم مقارنتها بما توصل إليه علم اللغة فى العصر الحديث لنرى مدى فهم ابن جنى لهذه القضايا .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتى فى مقدمة وتمهيد ، ثم عرض مبسط لموضوع البحث ثم خاتمة وفهارس .

{ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

الباحث

التمهيد

" ابن جنى وعلم اللغة "

أولا : التعريف بابن جنى :

هو [1] : أبو الفتح عثمان بن جني – بإسكان الياء : معرب كنى ، ومعناه فى العربية : فاضل ، كريم ، نبيل ، جيد التفكير ، عبقرى ، مخلص – الأزدى بالولاء الموصلي النحوي المشهور .

وكان أبوه جني مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي وزير شرف الدولة قراوشى ملك العرب وصاحب الموصل .

لذا فقد ولد بالموصل ، وفيها نشأ ، وإليها ينسب ، وكان مولده قبل الثلاثين والثلاثمائة من الهجرة .

وقد أخذ ابن جنى النحو عن : أحمد بن محمد الموصلى الشافعى المعروف بالأخفش ، وقرأ الأدب على أبى على الفارسى وهو الذى أحسن تخريجه ونهج له البحث .

وقد توثقت الصلات بينه وبين أستاذه أبى على الفارسى بأوثق الأسباب ، وكان ابن جنى يظهر من التعلق به والانتفاع بعلمه أحسن ما يظهر تلميذ لأستاذه.

وقد أخذ ابن جنى أيضا عن كثير من رواة اللغة والأدب ، منهم : محمد ابن الحسن المعروف بابن مقسم ، وهو من القراء ، وأبى الفرج الأصبهانى ، صاحب : " الأغانى " ، وغيرهم .

---

[1] انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان: ٣ / ٢٤٦ ، وتاريخ بغداد: ١١ / ٣١١ ، ومعجم الأدباء : ٣ / ٤٦١ ، وبغية الوعاة : ٢ / ١٣٢.

وقد انتفع بعلمه كل من أتى بعده بدءا من ابن سيده ، مرورا بابن سنان الخفاجى ، وابن منظور ، وغيرهم . [1]

مؤلفاته :

بلغ ابن جنى فى علوم العربية من الجلالة ما لم يبلغه إلا القليل ، ولذا فقد كثرت مؤلفاته وامتازت بالتجديد فى اللغة ، ولذا أطلق عليه : " عبقرى اللغة " .

من أهم مؤلفاته : الخصائص ، وسر الصناعة ، والمحتسب ، وغيرها .

ويكاد يجمع الرواة على أن وفاته كانت سنة ٣٩٢هـ ، فى بغداد ودفن فى مقابرها (رحمه الله) .

ثانيا : **علم اللغة** :

فى بداية القرن العشرين ولد علم يسمى علم اللغة ، يبحث فى اللغة وقد بدت إرهاصات هذا العلم فى القرن التاسع عشر ، ثم أخذ صورته الناضحة فى أوائل القرن العشرين على يد العالم اللغوى الذائع الصيت: فرديناند دى سوسير (١٨٥٧ – ١٩١٣م) الذى وضع المناهج الأساسية المعتمدة إلى يومنا هذا فى الدراسات اللغوية الحديثة .

الذى يرى أن موضوع علم اللغة هو دراسة اللغة " فى ذاتها " أى : تدرس كما هى ، فليس للباحث أن يغير من طبيعتها ، فليس له أن يقتصر فى بحثه على جوانب من اللغة مستحسنا إياها وينحى جوانب أخرى استهجانا لها .

كما أن علم اللغة يدرس اللغة " من أجل ذاتها " فمعناه أنه يدرسها بغرض الدراسة نفسها ، بعيدا عن النزعة المعيارية من تصحيح للخطأ ، أو النزعة التقويمية من تبيان ما هو جميل أو قبيح ، إن عمله قاصر على أن يصفها ويحللها

---

[1] مقدمة الخصائص : ١ / ٣١ وما بعدها.

بطريقة موضوعية . [١]

ودراسة اللغة فى علم اللغة لا تتحقق إلا بالنظرة العامة الشاملة البعيدة عن النظر الضيق ، والفكر الجزئى المحدود ، فاللغة التى يدرسها علم اللغة ليست الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية وليست لغة معينة من اللغات ، إنما هى اللغة التى تظهر وتتحقق فى أشكال لغات كثيرة ولهجات متعددة ، وصور مختلفة من صور الكلام الإنسانى ، فمع أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية وهذه الأخيرة تفترق عن الفرنسية ، إلا أن أصولا وخصائص جوهرية تجمع ما بين هذه اللغات، وتجمع ما بينها وما بين سائر اللغات وصور الكلام الإنسانى ، وهو أن كلا منها لغة ، لها نظام اجتماعى معين تتكلمه جماعة معينة بعد أن تتلقاه عن المجتمع.

وهكذا فعلم اللغة يستقى مادته من النظر فى اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص التى تسلك اللغات جميعا فى نسق واحد . [٢]

---

[١] سوسير رائد علم اللغة الحديث، د/محمد حسن عبد العزيز ، ص ١٤ ، علم اللغة ، د/السعران، ص٤٣، علم اللغة العربية، د/ محمود فهمى حجازى ، ص٣١، ٤٣

[٢] علم اللغة ، د / السعران ، ص ٥١ ، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، د / رمضان عبد التواب، ص ٧ ، ٨ ، ومن ملامح المنهج العلمى ، د / عبد الله ربيع محمود ، ص ٢٠.

أولا : اللغة بين الفطرية والاكتساب

من الموضوعات التى دار الحديث عنها فيها ابتداء من الإغريق والرومان والعرب وانتهاء بالعصر الحديث هذه القضية ، ولم يزل الخلاف حولها من أكثر نقاط البحث اللغوى قيمة ، وربما عمقا أيضا لما يترتب على ذلك من آثار فى فهم اللغة وتفسير حقيقتها تفسيرا علميا . [١]

ومعنى أن اللغة ظاهرة مكتسبة ، أن الإنسان لا يولد مزودا بها ، فمثلها مثل العادات والتقاليد ، أما الظاهرة الفطرية أو الغرزية فهى الظاهرة الطبيعية التى يولد الإنسان مزودا بها مثل : الأكل والشرب والبكاء والضحك فهى ظواهر فطرية [٢] ، " فالفرضية المسماة بالفطرية تنص على أن إحدى ملكات العقل العامة فى الجنس البشرى هى ملكة لغوية تقوم بالوظيفتين الأساسيتين فى النظرية العقلانية ، فهى توفر تنظيما حسيا للتحاليل اللغوية الأولية ورسما تخطيطا يحدد بصورة دقيقة فئة معينة من القواعد " . [٣]

وقد اختلف العلماء تجاه هذه القضية إلى فريقين : فريق يرى أن اللغة اجتماعية مكتسبة ، والآخر يرى أن اللغة ملكة فطرية وسوف نستعرض فهم كل فريق وأدلته العلمية فى ضوء ما انتهى إليه الوصفيون البنيويون القائلون بأن اللغة اجتماعية مكتسبة ، وهى الرؤية التى ارتآها دى سوسير وبلومفيلد ، وما انتهى إليه العقليون والبيولوجيون القائلون بأن اللغة ملكة فطرية وهى النظرة التى تبناها ديكارت وتشومسكى . [٤]

---

[١] من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ١٧ ، ١٨.

[٢] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١٣٨.

[٣] الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية ، د / ميشال زكريا ، ص ١٨٣.

[٤] من أسس علم اللغة ، د / حبلص ، ص ١٨.

فقد تأثر الوصفيون البنيويون بالآراء التى عرضها " سكينر " عالم النفس الأمريكى فى كتابه : (السلوك اللغوى) Verbal Behavior الذى يرى أن اللغة لا تعدو أن تكون عادة اجتماعية سلوكية مكتسبة مثل العادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان ، وأن اكتساب اللغة يتم عن طريق المحاولة والخطأ . [١]

ويمكن تلخيص آراء السلوكية بالنسبة للغة بأن اللغة تتألف من ردود فعل أو استجابات لمؤثرات خارجية ، يصبح الشكل المقبول منها اجتماعيا عادة لدى الفرد ، عن طريق الثواب الذى يقدمه المجتمع سواء اقتصر المجتمع على الوالدين فى بادئ الأمر ، أو امتد إلى أبعد من ذلك فيما بعد . [٢]

لذا فقد رأى الوصفيون أن اللغة رمز صوتى عرفى والرمز أو الإشارة هو الرابط الذى يصل الدال بالمدلول [٣] وليست هناك علاقة ضرورية بين الأصوات وما تشير إليه ، فليس هناك علاقة مباشرة بين المنطوق " قلم " والشئ المشار إليه به وهو القلم ذاته ، والرموز التى يستخدمها الإنسان كثيرة فالألوان رموز والحركات رموز والأعلام رموز ، غير أن الرموز اللغوية هى أغنى الأنظمة الرمزية وأكثرها إيجازا . [٤]

واللغة أصوات ، والصوت اللغوى هو : " أثر سمعى يصدر طواعية واختيارا عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزا أعضاء النطق ... " . [٥]

فاللغة لا تعدو أن تكون أصواتا يتألف منها ما يعرف بالكلمات والألفاظ ،

---

[١] علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ٣٤.

[٢] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١٣٨.

[٣] من أسس علم اللغة ، د / حبلص ، ص ١٩.

[٤] مدخل إلى علم اللغة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ص ١٥.

[٥] علم اللغة العام ، القسم الثانى الأصوات ، ص ٨١.

ومن هذه الكلمات تتكون الجمل والعبارات والربط بين الرمز اللغوى وما يشير إليه يتحقق عن طريق الخبرة المتكررة فى الطفولة عند اكتساب اللغة فى مراحل النمو اللغوى فيما بعد . [١]

واللغة عرفية فالعلاقة بين اللفظ وما يشير إليه علاقة عرفية لا ضرورية، لقد حدث فى وقت ما أن اختير لفظ معين ليشير إلى شئ أو فكرة ، فليس هناك تلازم بين اللفظ وما يدل عليه .

والعلاقة الوحيدة القائمة بين الرمز اللغوى وما يدل عليه هى علاقة الرمز، فالكلمة ترمز إلى شئ مادى أو معنوى ، فلا علاقة مثلا بين كلمة منضدة كرمز لغوى وبين المنضدة كواقع مادى إلا علاقة الرمز).[٢]

فالذى يضفى على الكلمة معنى هو الاتفاق المحض ، اتفاق الجماعة اللغوى على كون هذا الرمز اللغوى دالا على هذا الشئ .

وهذا الاتفاق – كما يقول د / محمد حسن عبد العزيز – : " ليس عملا صريحا أو واضحا فلم يجتمع الناس مثلا فى مؤتمر ليتفقوا على استخدام كلمة أو جملة . إنه فحسب اتفاق فى السلوك والعمل أن المتكلمين فى جماعة معينة يستخدمون نفس الكلمات للإشارة إلى نفس الأشياء ... إنه العرف الضمنى الذى يكون ويقر الأنظمة اللغوية وكل منا يكتسب لغته من مجتمعه المعين " . [٣]

فالإنسان يتعلم " يكتسب " اللغة من المجتمع " ففى أحضان المجتمع تكونت اللغة . وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم ...

---

[١] مدخل إلى علم اللغة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ص ١٥.

[٢] علم اللغة العربية مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية ، د / محمود فهمى حجازى ، ص ١٥.

[٣] مدخل إلى علم اللغة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ص ١٦.

فللغة وهى الواقع الاجتماعى بمعناه الأوفى ، تنتج من الاحتكاك الاجتماعى . وصارت واحدة من أقوى العرى التى تربط الجماعات وقد دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعى " . [١]

ولكى يؤكد القائلون بأن اللغة اجتماعية مكتسبة يحرصون على نفى فطرية اللغة ، فيقولون بأن استعمال مصطلح " أعضاء النطق " هو من قبيل التجاوز ، أو اعتبار النطق وظيفة ثانوية لهذه الأعضاء ، يقول سابير : " لا ينبغى أن يضللنا هذا المصطلح فنرى فيه تسليما من اللغويين بأن الكلام نفسه نشاط غريزى بيولوجى . ذلك لأنه ليس ثمة فى الحقيقة " أعضاء " خاصة بالكلام، مفردة له ، ومقصورة عليه ، ووظيفتها الأصلية هى الكلام . إن الموجود فعلا ، والمستعمل فى عملية الكلام . هو أعضاء " صالحة " اتفاقا لإنتاج الأصوات الكلامية . فالرئتان ، والحنجرة والحلق، والأنف، واللسان، والأسنان ، والشفتان كلها " صالحة لإنتاج الأصوات الكلامية ، ولكنها ليست أعضاء أصلية للكلام...".[٢]

فطرية اللغة :

وبعد أن عرضنا النظرية القائلة بأن اللغة اجتماعية مكتسبة ، نأتى إلى النظرية المضادة وهى القائلة بأن اللغة هبة من الله أو ملكة فطرية غريزية .

وهى النظرة التى تبناها العقليون والبيولوجيون ، والذين يرون أن الملكات الفطرية أو العقل هو الذى يتحكم فى معارفنا دون أى تأثير للبيئة من حولنا .

فالعقليون ينظرون للمخ باعتباره مزودا وراثيا ببرنامج غنى ومفصل

---

[١] اللغة لفندريس ، تعريب / عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ، ص ٣٥.

[٢] علم اللغة، د / السعران ، ص ٦١ ، والأصوات ، د / كمال بشر ، ص ٨١ ، ومن أسس علم اللغة ، د / حبلص ، ص ٢٥ ، ٢٦.

بوضوح ، لاستقبال وتفسير وتخزين واستعمال المعلومات العشوائية التى تزوده بها أعضاء الحس . [١]

وتمثل المدرسة التوليدية التحويلية وعلى رأسها تشومسكى نموذجا لهذا الاتجاه العقلى الذى يتكئ على أدلة بعضها بيولوجى وبعضها عقلى وبعضها واقعى فى الانتصار لفظرية اللغة . [٢]

فقد كان من أهم ما قام به تشومسكى فى علم اللغة هجومه الساحق المدمر على آراء سكينر التى عرضها فى كتابه " السلوك اللغوى " بأن اللغة لا تعدو أن تكون عادة اجتماعية سلوكية مثلها فى ذلك مثل سائر العادات السلوكية الأخرى ، وأن اكتساب اللغة يتم عن طريق المحاولة والخطأ ، أثبت تشومسكى فى هجومه أمرين :

الأمر الأول : يرى أنه لا توجد أى علاقة بين سلوك حيوانات التجارب وبين اللغة البشرية ؛ لأن اللغة خاصية من خصائص الإنسان التى لا يشاركه فيها غيره .

الأمر الثانى : هو أن فهم سكينر لطبيعة اللغة فهم خاطئ من أساسه ، فبينما يعد سكينر اللغة مجموعة من العادات الظاهرية التى تتكون لدى الإنسان نتيجة للاستجابات للمؤثرات الخارجية دونما حاجة إلى جهاز فطرى أو عقلى خاص يعين على ذلك يرى تشومسكى أن اللغة ظاهرة عقلية معقدة غاية التعقيد ، وأن الإنسان يولد ولديه قدرة لغوية معينة تساعده على اكتساب أية لغة يعيش فى

---

[١] موجز تاريخ علم اللغة فى الغرب لروبنز ، ترجمة د / أحمد عوض ، ص ٣٤٥ ، ومباحث فى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، د / نور الهدى لوشن ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١.

[٢] الوضع اللغوى فى الفصحى المعاصرة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ص ٤٩ ، ومن أسس علم اللغة ، ص ٢٨.

مجتمعها . [١]

كما أبرز تشومسكى صفة مهمة للغاية من صفات اللغة وهى قدرة المتكلم على تأليف وابتكار جمل وتعابير جديدة لم يقلها أحد من قبل ، أو على الأقل لم يسمعها هو نفسه من قبل وهى ما تسمى بنظرية : " الخلق والابتكار " . [٢]

بل لقد ذهب تشومسكى إلى أبعد من ذلك فقال : بأن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء – كما يقول السلوكيون – بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أية لغة يعيش فى مجتمعها . [٣]

وقد بين أنصار هذا الاتجاه أن وظيفة النطق ليست وظيفة ثانوية لأعضاء النطق ، بل إن دراسة خصائص أعضاء النطق تشريحيا تدعم فرضية الاختصاص فى التصميم ، والتهيؤ المسبق لأداء هذه الوظيفة.

فيتركب الفم والوجه من شبكة من العضلات المعقدة ، والمتنوعة عددا وحجما مما يسهل حركة الفم ، ويكسبه المرونة المناسبة لأداء مهمة إنتاج الكلام، كما أن تكافؤ ارتفاع الأسنان وانتظام تجاورها يساعد على إصدار طائفة أخرى من الأصوات ، واللسان وقوته ومرونته التى تساعد على سرعة حركته ، يؤكد حقيقة التهيؤ القبلى لهذا العضو لأداء وظيفة الكلام ، وكذلك الأمر بالنسبة للحنجرة والبلعوم وتجويف الفم .

كل ذلك يؤكد أن الإنسان يمتلك جهاز نطق لإصدار الكلام مصمما فطريا

---

[١] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د/ نايف خرما، ص ١١٣، ١٤٠ ، وعلم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ٣٤.

[٢] الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، د / ميشال زكريا، ص ١٨٣ ، وأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د/ نايف خرما، ص ١١٩، ١٤١.

[٣] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١١٩.

لآداء هذه الوظيفة [١] ، وغير ذلك من الأدلة التى ساقها أنصار الفطرية .

يقول الدكتور / محمد حبلص : " ... غير أننا لن نضيف أكثر من تأكيد نفس الحقيقة أن هناك أدلة بيولوجية تؤكد وجود أعضاء ومراكز من مهماتها إصدار الكلام واستقباله وتحليله ، وأن اللغة بالنسبة لهذه الأعضاء والمراكز ليست وظيفة عرضية وإنما يؤكد التصميم التشريحى ، والتحليل الفسيولوجى الوظيفى لهذه الأعضاء والمراكز يؤكد ذلك كله تخصصها القبلى فى إنتاج اللغة واستقبالها وكل ذلك بالطبع يدعم الفرضية الفطرية " . [٢]

وقد وجهت إلى هذه النظرية " فطرية اللغة " عدة انتقادات ، منها :

يرفض المعارضون لهذه النظرية دعوى امتلاك الطفل لنظرية لغوية منطقية تمكنه من ابتكار التمييزات عن طريق هذه النظرية ، ويرون أن وجود هذه القدرة الفطرية أمر لا ينكره أحد ، ولكن ما كنه هذه القدرة ؟ ! . [٣]

فهذه القدرة ليست أكثر من مجرد كلمات لا دليلاً علمياً عليها كما لا يمكن الفصل فى اللغة بين ما هو فطرى غريزى وما هو اجتماعى مكتسب ، فمن الواضح تماما أن اللغة ليست صفة أو غريزة وراثية تنمو وتتطور بمعزل عن المجتمع كالمشى والتبول والنمو الجنسى مثلا ، كما أن الطفل لا يكتسب اللغة وهو خالى الذهن بل إنه يفعل ذلك بوعى كامل ، فهو عنصر إيجابى متفاعل مع اللغة التى يتعلمها . [٤]

---

[١] ينظر فى هذه الأمور بالتفصيل فى: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د / نايف خرما ، ص ١٦٦ وما بعدها.

[٢] من أسس علم اللغة ، ص ٤٣.

[٣] المرجع السابق ، ص ٤٥.

[٤] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١٥٤ ، ومن أسس علم

فاللغة – كما يقول د / نايف خرما – : " لا هى طبع كامل ولا تطبع كامل بل هى حصيلة الاثنين معا ، وما دام الأمر كذلك فإن الأمر يستدعى النظر فى كل من هذين الأمرين نظرة جديدة فى ضوء النظريات الحديثة " . (١)

فى ضوء ما سبق يتضح لنا أن علماء اللغة فى العصر الحديث وقفوا تجاه هذه القضية مترددين بين كون اللغة فطرية غريزية وبين كونها مكتسبة اجتماعية .

وهو نفس الموقف الذى وقفه عبقرى اللغة اللغوى الكبير ابن جنى حين نظر فى المسالة قبل ألف عام فلم يدر أللغة هبة فطرية من الله ، أم اصطلاحية مكتسبة ؟ (٢)

يقول ابن جنى – عن كون اللغة هبة فطرية من الله – : " واعلم فيما بعد ، أنني على تقادم الوقت. دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي والخوالِج قويّة التجاذب لي ، مختلفة جِهاتِ التغوّل (٣)على فكرى ، وذلك أنني إذا تأّملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقّة ، والإرهاف ، والرقّة ، ما يملك علىّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوةِ (٤) السحر ، فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا – رحمهم الله – ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحّة ما وفَّقوا لتقديمه منه . ولطفَ ما أُسعدوا به ، وفُرق لهم عنه . وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند اللّه – جل وعزّ – فقوى في نفسى اعتقاد كونها توفيقاً من

اللغة ، ص ٤٦ ، ٤٧.

(١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١٥٦.

(٢) من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ٥٣.

(٣) تغول الأمر : تناكر وتشابه ، أى : أشكل . [اللسان (غ و ل)].

(٤) غلا فى الشئ : تشدد فيه وجاوز الحد وأفرط . [اللسان (غ ل و)].

الله سبحانه ، وأنها وحي " . [١]

ثم يقول – عن كونها اصطلاحية مكتسبة – : " ثم أقول في ضدّ هذا : كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله – تعالى – قد خلق من قَبلنا – وإن بعد مداه عنا – مَن كان ألطف منا أذهانا ، وأسرع خواطر وأجرأ جَنَاناً " . [٢]

ثم يبين أنه لا يجزم بأحد الرأيين ، فيقول : " ... فأقف بين تين الخَلّتين حسيراً ، وأكاثرهما فأنكفئ مكثوراً . وإن خطر خاطر فيما بعد ، يعلّق الكف بإحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به ، وبالله التوفيق " . [٣]

ظهر من خلال النص السابق أدلة ابن جنى لكل فرضية منها فأدلته لكون اللغة هبة فطرية من الله وجود الحكمة والدقة والإرهاف والرقة فى اللغة مما يجعلها تتعالى عن صنع البشر ، وهذه الأشياء منها ما نبه عليه علماء اللغة قبل ابن جنى ، ومنها ما وقف عليه ابن جنى . كما يضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله – ﷻ – .

وأدلته لكون اللغة اصطلاحية مكتسبة من صنع الإنسان هى إذ كنا استطعنا الوقوف ومعرفة الحكمة الباهرة فى اللغة ، فيجوز أن الله – ﷻ – قد خلق من قبلنا من استطاع وضع هذه اللغة ذات الحكمة الباهرة ، فيقول فى صفتهم : " مَن كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جَنَاناً " .

---

[١] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٧.

[٢] المرجع السابق : ١ / ٤٧.

[٣] المرجع السابق : ١ / ٤٧.

ثانيا : نشأة اللغة

هذا موضوع مثير ، كثرت الكتابة فيه كثرة فاقت الحصر ، فمنذ عصر اليونان وحتى عصرنا هذا ، والناس يكتبون فيه .

وقد كان لابن جنى باع فى هذه القضية ، يقول الدكتور / محمد يوسف حبلص : " تناول علماء العربية قضايا اللغة العامة كقضية نشأة اللغة وانقسموا فريقين : فريق يقول بتوقيفية اللغة ومنهم ابن فارس ، وفريق يقول باصطلاحيتها وعلى رأسهم ابن جنى ، ويعد فهم ابن جنى لكثير من القضايا العامة فى اللغة فهما يسبق عصره ، وهى رؤية رشيدة يغمض عن رؤيتها الحاقدون " [١] ، وقد تناول ابن جنى هذه القضية ، وسوف نعرض لرأيه فيها ونرى وجهة علم اللغة الحديث فى هذا الرأى .

المذهب الأول : نظرية الوحى والإلهام (المذهب التوقيفى) :

وقد قال ابن جنى بهذا المذهب متابعا فيه شيخه أبا على الفارسى [٢]

وقد قال بهذا الرأى فى العصر الحديث الأب (لامى) و(دو بونالد) الفيلسوف الفرنسى [٣] ، وهذه النظرية تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى إلهام ووحى من الله هبط على آدم – عليه السلام – ، فعلمه أسماء المخلوقات والأشياء من حوله .

وقد استدل ابن جنى والقائلون من المسلمين بهذه النظرية بقوله تعالى : { وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[٤] على أن معنى { علم } لقن وأوقف وألهم ، و {

---

[١] من أسس علم اللغة ، ص ٢١٨.

[٢] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

[٣] علم اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ، ص ٩٧.

[٤] سورة البقرة من الآية (٣١).

الأسماء } الألفاظ التى تدل على معان لتشمل أنواع الكلمة.[١]

ويرد ابن جنى على الاستدلال بهذه الآية بقوله : " وهذا لا يتناول موضع الخلاف . وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكَر سقط الاستدلال به " . [٢]

غير أننا نجد ابن جنى يتلمس لهذا الرأى حجة بقوله: " على أنه قد فسّر هذا بأن قيل إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات : العربية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والرومية ، وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا ، وعِلق كل منهم بلغة من اللغات ، فغلبت عليه ، واضمحلّ عنه ما سواها لبعد عهدهم بها ، وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقّيه باعتقاده والانطواءُ على القول به " [٣] .

وهذا القول من ابن جنى يؤكد رأيه فى القول بالوحى والإلهام . [٤]

بل يجيب ابن جنى على من يقول: " إن اللغة فيها أسماء ، وأفعال ، وحروف ، وليس يجوز أن يكون المعلَّم من ذلك الأسماء دون غيرها ، مما ليس

---

(١) المزهر: ١ / ١٧، وفى فقه اللغة العربية، د / ناجح عبد الحافظ ، ص ٣٧.

(٢) الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

(٣) المرجع السابق : ١ / ٤٥.

(٤) على عكس ما يرى المحقق الكريم ، فالأستاذ /عبد الحكيم بن محمد يرى أن هذا القول يذهب إلى مذهب التواضع والاصطلاح ، وكيف ذلك وابن جنى هنا يتكلم عن مذهب الوحى والإلهام ، كما نجد عبارته فى أول هذه الفقرة : " أن الله – سبحانه – علم آدم جميع المخلوقات " . الخصائص لابن جنى، تحقيق/ عبد الحكيم بن محمد : ١ / ٥١ من الهامش ، ط المكتبة التوفيقية.

بأسماء ، فكيف خصّ الأسماء وحدها ؟ " . [١]

فيقول : " اعتَمَد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القُبُل الثلاثة ولابدّ لكل كلام مفيد من الاسم ، وقد تستغني الجملة المستقلّة عن كل واحد من الحرف والفعل ، فلمّا كانت الأسماء من القوّة والأوّلية في النفْس والرتبة ، على مالا خفاء به جاز أن يكتفي بها مما هو تال لها ، ومحمول في الحاجة إليه عليها".[٢]

الرد على هذا المذهب :

هذه الآية ليست نصا فى أن الله ألهم آدم اللغة ، لجواز أن يكون {علّم} بمعنى : أقدر ، و {الأسماء } بمعنى : (صفات الأشياء ونعوتها) [٣] والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط الاستدلال به .

هذا وإن المذهب التوقيفى غير متقبل فى العلم اللغوى الحديث وذلك لافتقاره إلى الحجة العلمية المقنعة نظرا لما تبين لنا من وهن حججه وأدلته ، وعدم قطعيتها من جهة ، ولمخالفته سنة التطور المنطقية ، وطبيعة نشأة الظواهر الاجتماعية من جهة أخرى . [٤]

هذا إذا لم يكن قد ورد به الخبر الصحيح – كما يقول ابن جنى – فإذا ورد وجب تلقيه بالقبول والانطواء على القول به . [٥]

المذهب الثانى : **مذهب المواضعة والاصطلاح** :

يرى أصحاب هذا المذهب أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق،

---

[١] الخصائص : ١ / ٤٦.

[٢] المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة.

[٣] العربية خصائصها وسماتها ، د / عبد الغفار حامد هلال ، ص ٢٧.

[٤] فى فقه اللغة العربية ، د / ناجح عبد الحافظ مبروك ، ص ٤٤.

[٥] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

وأن الإنسان هو الذى وضع ألفاظ اللغة ، فهو مخترعها وصانعها بفكره الخاص وحسب حاجتها فى الحياة .

وقد ذهب إلى هذا الرأى ابن جنى ، وقد قال بهذا المذهب فى العصر الحديث الفلاسفة الإنجليز : آدم سميث ، وريد ، ودجلد استيوارت . [١]

ويبين ابن جنى كيف تكون المواضعة بقوله : " كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سِمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليُغْنَى بذكره عن إحضاره إلى مَرْآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخفّ وأسهل من تكلف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله. بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفاني ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز ، وغيرِ هذا مما هو جارٍ في الاستحالة والبعد مجراه . فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم ، فأومئوا إليه ، وقالوا : إنسان إنسان إنسان ، فأىَّ وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق وإن أرادوا سِمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك ، فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ، أو نحو ذلك . فمتى سُمِعت اللفظة من هذا عِرف معنيِهّا ، وهلم جَرّا فيما سوى هذا من الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، ثَم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها ، فتقول : الذي اسمه إنسان فليجعل مكانه مَرْد [٢] ، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه سَرْ [٣] ، وعلى هذا بقيّة الكلام . وكذلك لو بدئَت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها ،

---

[١] علم اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ، ص ٩٨.

[٢] المرد : هو الإنسان بالفارسية.

[٣] سر : الرأس فى الفارسية.

لجاز أن تنقل ويوَلَّد منها لغات كثيرة : من الرومية ، والزنجية ، وغيرهما . [١]

أدلة هذا الرأى عند ابن جنى :

١ – الإنسان بفكره الخاص ، وحسب حاجته فى الحياة يضع ألفاظا جديدة، يقول ابن جنى : " وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصُّناع لآلات صنائعهم من الأسماء : كالنجّار ، والصائغ ، والحائك ".[٢]

٢ – المواضعة لابد فيها من الإيماء والإشارة ، والله – ﷻ – لا جارحة له ، فيثبت أن المواضعة لا تكون إلا من البشر ، يقول ابن جنى : " قالوا ولكن لا بدّ لأوّلها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدةِ والإيماء . قالوا : والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضِع أحدا من عباده على شئ ، إذ قد ثبت أن المواضعة لا بدّ معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه ، والمشارِ نحوه ، والقديم سبحانه لا جارحة له ، فيصحَّ الإيماء والإشارة بها منه ، فبطل عندهم أن تصحّ المواضعة على اللغة منه – تقدّست أسماؤه – قالوا : ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التي قد وقع التواضع بين عباده عليها ، بأن يقول : الذي كنتم تعبّرون عنه بكذا عبَّروا عنه بكذا ، والذي كنتم تسمّونه كذا ينبغي أن تسمّوه كذا، وجواز هذا منه – سبحانه– كجوازه من عباده " . [٣]

ويحسن ابن جنى هذا المذهب ، فيقول : " وهذا قول – يقصد مذهب المواضعة – من الظهور على ما تراه " . [٤]

---

[١] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٤ ، ٤٥.

[٢] المرجع السابق : ١ / ٤٥.

[٣] المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة.

[٤] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

الرد على هذه الأدلة :

إن القول بأن اللغة نشأت بطريق المواضعة والاصطلاح تتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية فهو يجعل اللغة وهى نظام اجتماعى ترتجل ارتجالا ، وتخلق خلقا متكاملا من أول أمرها ، وقد عهدنا فى النظم الاجتماعية أنها تتكون بالتدريج شيئا فشيئا.[١]

ثم كيف تكون الإشارة إلى المعنويات وما إلى ذلك وعلى حد تعبير ابن جنى – نفسه – : " بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ، ولا إدناؤه ، كالفاني ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز ، وغيرِ هذا مما هو جارٍ في الاستحالة والبعد مجراه " [٢] فابن جنى نفسه لا يجد تفسيرا لهذا ويقر بصعوبته .

كما أن التواضع على التسمية ، يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون ، فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن ؟ وهكذا نجد أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ لغة ، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل . [٣]

أما عن كون أبناء المجموعة اللغوية يكون لهم دور فى نشأة كثير من الألفاظ وارتجالها ، وهو ما يعبر عنه ابن جنى بقوله : " وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصُناع ... " [٤] فهذا مشاهد وملموس ، لكننا نشك كثيرا فى أن

---

[١] علم اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ، ص ٩٨ : ١٠١.

[٢] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

[٣] نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ، د / وافى ، ص ٣٢ ، والمدخل إلى علم اللغة ، د / رمضان عبد التواب ، ص ١١٢.

[٤] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٥.

تكون المواضعة هى أساس نشأة اللغة ، إن المواضعة مرحلة تالية لنشأة اللغة ، مرحلة أتت بعد أن اكتشف الإنسان أعضاء نطقه ودربها على إصدار الأصوات ، وكوّن منها رصيدا صوتيا استطاع به فيما بعد أن يضع ألفاظا بتشكيل هذه الأصوات فى صور عدة يعبر بكل صورة عن مكتشفه من معان .[١]

أما الرد على الدليل الثانى ، وهو أن الإشارة مستحيلة على الله – سبحانه – فالرد من ابن جنى نفسه يقول : " إلا أننى سألت يوماً بعض أهله ، فقلت : ما تنكر أن تصحّ المواضعة من الله تعالى ؟ وإن لم يكن ذا جارحة ، بأن يُحدث في جسم من الأجسام خشبةٍ أو غيرها ، إقبالا على شخص من الأشخاص ، وتحريكا لها نحوه ويُسمع في نَفْس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتاً يضعه اسماً له ، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفَعَاتٍ ، مع أنه – عزّ اسمه – قادر على أن يُقنع في تعريفه ذلك بالمرة الواحدة ، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء ، وهذه الإشارة ، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة ... فلم يجِب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه ، ولم يخرج من جهته شئ أصلا فأحكيَه عنه ، وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعه القديم تعالى .[٢]

المذهب الثالث : مذهب المحاكاة والتقليد :

ذهب كثير من علماء اللغة المحدثين إلى أن اللغة نشأت عن طريق المحاكاة والتقليد لأصوات الطبيعة يقول عالمنا ابن جنى : " وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات : كدوِىّ الريح ، وحنينِ الرعد ، وخرِير الماء ، وسحِيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزِيبِ الظبي ،

---

[١] نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ، د/ وافى ، ص٣٢ ، ومحاضرات فى فقه اللغة العربية ، د/ عيد الطيب ، ص ١٤، ١٥.

[٢] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٦.

ونحو ذلك ، ثم ولدتِ اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبَّل " . [١]

وعلى هذا فالإنسان قد حاكى الأصوات التى يريد إحضارها فى ذهنه ليدل بالصوت على مصدره أو ما يتصل به ، وقد استخدم فى هذه المحاكاة ما منحه الله من قدرات مكنته من التلفظ بأصوات ذات مقاطع خاصة ثم تكوين الكلمات فيما بعد .

هذا وقد كانت لغته فى أول الأمر محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، تشبه الأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ، ثم ارتقت برقيه ، وتعددت أنواع الدلالة فيها حتى انتقلت من طور المحسوسات إلى طور المعقولات ، وأصبحت تفى بحاجاته ومتطلباته ، وكانت فى أول أمرها تستخدم الإشارات بجميع أنواعها للدلالة بها على المطلوب ، ثم تركتها بعد رقيها [٢] ، وقد استمد القائلون بهذه النظرية بأدلة من لغة الطفل ، ومن لغات الأمم البدائية ، واستطاعوا الرد على كل النقود التى وجهت إلى هذه النظرية . [٣]

وهذه النظرية – كما يقول الدكتور/ على عبد الواحد وافى –: " هى أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة ، وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية ، وهى إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التى نحن بصددها ، وهى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التى

---

[١] الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٦.

[٢] فقه اللغة العربية ، د / إبراهيم نجا ، ص ٢٠.

[٣] راجع هذه الأمور بالتفصيل فى: فقه اللغة العربية د/ نجا ، ص ٢٠ ، ٢١ ، وفى فقه اللغة العربية ، د / ناجح عبد الحافظ ، ص ٥١ : ٥٦.

وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره ".[١]

وقد انتصر لهذا المذهب كثير من الباحثين العرب مثل : مصطفى صادق الرافعى [٢]، وجورجى زيدان[٣] وغيرهم .

يقول الدكتور / إبراهيم أنيس : " لا يصح أن ننساق مع بعض المعترضين على هذه النظرية فى تهكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغريزية ؛ لأن وراء هذه الأصوات سورا حصينا عنده فى الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة فالمعترضون يفترضون فى هذا النوع من الأصوات عقما ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية ولكن الواقع يبرهن على أن كثيرا من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت عن تلك الأصوات الغريزية المبهمة ، ثم سمت فى تطورها ودللتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنسانى ... ثم يقول : " يمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستقاة من الأصوات الطبيعية قد تتطور فى دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات المجردة فى الذهن الإنسانى ".[٤]

لقد استطاع ابن جنى بفكره الثاقب أن يبين أن اللغة نشأت عن طريق المحاكاة والتقليد فى أول أمرها ثم أتت بعدها مرحلة المواضعة والاصطلاح [٥]، فالإنسان بالمحاكاة قد افتتح طريق الكلام ، فتعد فترة المحاكاة فترة تدريب لأعضاء

---

(١) علم اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ، ص ١٠٥.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لمصطفى صادق الرافعى : ١ / ١٧٤.

(٣) الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ، ص ٢٥٦.

(٤) دلالة الألفاظ ، د / إبراهيم أنيس ، ص ٢١ ، ٢٢.

(٥) الخصائص لابن جنى : ١ / ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٢٧.

النطق ينطلق بعدها الإنسان إلى المواضعة والاصطلاح [١] ، وهو ما يوافق عليه علم اللغة الحديث .

يقول الدكتور / صبحى الصالح : " فإذا استثنينا رأى هذا العبقرى ابن جنى الذى سبق إلى القول بوضع اللغة وبأن وضعها لم يكن فى وقت واحد ، بل على دفعات ، إذ تلاحق تابع منها بفارط ، وأنها بدأت بصورتها الصوتية السمعية فكان أصل اللغات كلها الأصوات المسموعة " . [٢]

---

[١] محاضرات فى فقه اللغة العربية ، د / عيد الطيب ، ص ١٥.

[٢] دراسات فى فقه اللغة ، د / صبحى الصالح ، ص ٣٤.

ثالثا : وظائف اللغة

تعد اللغة من أهم الأشياء التى تميز الإنسان ، تقول د / يمنى الخولى – نقلا عن بوبر – : " إن اللغة الإنسانية بوظائفها المختلفة هى علة خروجنا من مملكة الحيوان ، أى علة كوننا بشراً ، الوعى الإنسانى والوعى بالذات جاءا نتيجة لها ، ونحن ندين بفكرنا وحضارتنا للغة ، وهى التى كفلت تواصل الأجيال واستئناف المسير " . [١]

لذا فقد اختلفت وجهات نظر العلماء فى وظيفة اللغة ، فالفلاسفة وعلماء المنطق ، يحصرون وظائف اللغة فى أمور ثلاث ، هى :

١. كونها وسيلة للتوصيل .
٢. مساعد آلى للتفكير .
٣. استخدامها وسيلة للتسجيل والرجوع إلى ما يسجل . [٢]

وهؤلاء نظروا للغة على أنها أداة الفكر ، ومهمتها نقل الأفكار وواضح أن الأمر الثالث يرجع فى الحقيقة إلى الأمر الأول ، وهو التوصيل ؛ لأن من يسجل أفكاره ليرجع إليها هو أو غيره ، فإن هذا أمر لا يختلف فى جوهره عن الغاية الأولى للغة . [٣]

وواضح أن هذه الأغراض التى ذكرها علماء الفلاسفة وعلماء المنطق لا تخص جميع الناطقين باللغة ، وإنما تنطبق على رجال الفكر فحسب فى حالات الاستغراق الذهنى ، والاستبطان العقلى .

إن اللغة أولا وأخيرا – فى نظر العقليين من أصحاب الفلسفة والمنطق –

---

(١) مقال د / يمنى طريف الخولى ، فى جريدة الأهرام : ١ / ١١ / ١٩٨٥م.

(٢) اللغة والمجتمع .. رأى ومنهج للدكتور / محمود السعران ، ص ١٣ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ ، ومدخل إلى علم اللغة الحديث، د / البركاوى ، ص ٣١.

فكر أو تعبير عن فكر ، وهذه نظرة قاصرة جدا لأنها لا يمكن أن تستوعب جميع أشكال " الأحداث اللغوية " أو أنواع السلوك الكلامى.[١]

أما أصحاب المدرسة السلوكية من علماء النفس فيحصرون وظائف اللغة فى الأمور الثلاثة :

١. التعبير عن شئ ما ، أو الإخبار عنه ، وهذا خاص بالمتكلم .
٢. استدعاء معنى من المعانى ، وهذا خاص بالسامع .
٣. توضيح لشئ ما ، وهذا خاص بموضوع البحث . [٢]

وهذه الأمور فى الحقيقة ترجع إلى أن وظيفة اللغة هى التأثير فى الناس وإقناعهم بالرسالة التى توجه إليهم ، ودفعهم إلى عمل سلوكى معين ، وهذه الوظيفة السلوكية مهمة ولا شك ، وذات خطورة عظيمة وخاصة فى زماننا نتيجة لانتشار وسائل الإعلام ، ودورها الخطير فى صنع الرأى العام وتوجيه سلوك المجتمعات ، فاللغة من أقوى الأسلحة النفسية للسيطرة على الأفكار ، ولكنها ليست السبب الوحيد الذى يدفعنا إلى الكلام . [٣]

أما أصحاب المدرسة الاجتماعية فيرون أن اللغة ظاهرة اجتماعية لابد لها من مجتمع توجد فيه ، فلا توجد لغة من دون مجتمع ، فهى نتيجة للاتصال الاجتماعى ، لذا فيرون أن الوظيفة الأساسية للغة هى تحقيق الاتصال والترابط بين أفراد المجتمع ، فاللغة تقف موقف الرابطة التى توحد أعضاء الجماعة ، فتكون العلامة التى بها يعرفون والنسب الذى إليه ينتسبون . [٤]

---

(١) علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ١٥.
(٢) مدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / عبد الفتاح البركاوى ، ص ٣٢.
(٣) علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ١٥ ، ١٦.
(٤) اللغة لفندريس ، ص ٢٤٠ ، وعلم اللغة بين التراث والمعاصرة ، ص ١٧.

ويتحقق هذا التواصل بأشكال مختلفة منها :

١. الترابط الاجتماعى ، فكلمات مثل : صباح الخير ، مساء الخير ، ... ليس فيها فكر ، وإنما ينظر إليها الناس على أنها واجب اجتماعى .

والأمثال التى قد يتمثلون بها هى تراث شائع ، وقسمة مشتركة ، وعلى ذلك فليس وراء هذه الأحاديث من غاية إلا الانسجام النفسى والتعاطف الوجدانى وتزجية الوقت ، والتسرية عن النفس .

٢. التفاهم بين البشر ، وهى وظيفة أساسية ليحقق الإنسان مصالحه ، ومن ذلك أغلب اللغة المستعملة فى البيع والشراء والعمل والتجارة.

٣. المساعدة على إنجاز بعض الأعمال والأنشطة الحيوية التى يؤديها العمال فى صورة جماعية كأعمال الصيد والبناء والحفر ، فالكلمات التى يتغنى بها العمال ليس لها معنى سوى قيمتها العملية فى انجاز العمل .

٤. التوجيه العملى المباشر ، ويدخل فى ذلك الكلام الذى يترتب عليه حدث معين ، مثل الكلام المستعمل فى الزواج ، والمحكمة ... . [١]

ولكن يوجد للغة أيضا وظائف أخرى غير هذه الوظائف ، منها :

١. أن تصبح اللغة غاية فى نفسها ، وذلك لما يجلب القيام بها من متعة فبعض الناس تسكره شهوة الكلام ، وبحد لذة فى سماع صوته وهو يتكلم ، فالإنسان ميال إلى اللعب باللغة فهى بالنسبة له وسيلة للهو والتسلية وإدخال الشرور إلى النفس ، ولذا قيل : " خير لعب الإنسان لسانه " .[٢]

---

[١] اللغة والمجتمع ، د / محمود السعران ، ص ٣٢ ، وعلم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د/عاطف مدكور ، ص ١٨ ، ١٩.

[٢] علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ٢٠.

٢. اللغة المستخدمة فى الدعاء أو الصلاة ، لا تهدف لنقل فكر ، ولا تحقق اتصالا اجتماعيا ، وإن حققت اتصالا بالخالق – ﷻ –.[١]

٣. اللغة المستخدمة فى طقوس السحر والشعوذة ، ومناجاة الصوفية وأوراد النساك والزهاد . [٢]

مما سبق يتبين لنا أن كل مدرسة من المدارس السابقة " العقلية – علماء الفلسفة والمنطق – والسلوكية ، والاجتماعية " قد ذكرت بعض وظائف اللغة وفاتها وظائف أخرى .

وحين ننظر إلى عالمنا ابن جنى نجده قد أوجز وظيفة اللغة فى " التعبير عن أغراض الجماعة " ، والتعبير عن الغرض لدى أفراد الجماعة قد يكون تبادلا للمعلومات أو الأفكار من شخص لآخر . وقد يكون للتأثير على الناس أو للتمتع باللغة أو غير ذلك . [٣]

يقول الدكتور / محمد يوسف حبلص : " ويغلب على ظنى أن العبقرى العربى ابن جنى قد بز الجميع ورادهم أيضا حين قال : " حدُّ اللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم " ففى قوله " يعبر " أى أنها أداة للتعبير ، و " كل قوم " يدل على أنها وسيلة للتعبير قد تختلف من جماعة لأخرى ، و " عن أغراضهم " قيد عام فضفاض يتسع لكل ما ذكر سابقا سواء أكان الغرض نقل الفكر أم المشاعر والعواطف أم الإقناع والإثارة أم تحقيق التواصل الاجتماعى والتفاهم . أم اللعب واللهو والتسلية ... أو غير ذلك ... فالتعبير عن غرضنا يتسع لكل ما نستهدفه وما نريده من التعبير ، وما نقصد من الكلام ... واللغة التى تعبر عن هذه

---

[١] أضواء على الدراسات اللغوية العاصرة ، ص ٢١١.

[٢] من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ٦٩.

[٣] مدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / البركاوى ، ص ١٩.

الأغراض المتنوعة لابد أن تتنوع وظائفها كذلك ، الأمر الذى يجعل تعبير ابن جنى هذا التعبير البارع الوافى ، أدق فى تحديد حقيقة الوظيفة التى تقوم بها اللغة من أى حصر أو تصنيف لوظائف اللغة المتنوعة تنوع أغراض الإنسان ومقاصده لتنوع البشر وتنوع الزمان وتنوع المكان ، وتنوع الحاجات والمقاصد التى يتغيونها من كلامهم وتلك هى القاعدة العلمية الذهبية التى تتمتع بالشمول والإطراد من جانب والبساطة من جانب آخر".[1]

[1] من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ٧٠ ، ٧١.

رابعا : تعريف اللغة

كثرت تعريفات اللغة كثرة شديدة ،وذلك يدل على أهمية اللغة بالنسبة للمجتمع ، وسوف نورد تعريف ابن جنى لها وتبين ما فيه من عناصر ، ثم نقيمه من خلال تعريفات علماء اللغة المحدثين .

يقول ابن جنى فى تعريفه للغة : " حدُّ اللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم " . [١]

وابن جنى هنا يقصد اللغة الإنسانية بوجه عام ، فقد ذكر هذا التعريف تحت عنوان (باب القول على اللغة وما هى) [٢] وقوله بعد إيراد هذا التعريف " وأما اختلافها فلما سنذكره عليها أمواضعة هى أم إلهام ؟ " [٣]

ويعد تعريف ابن جنى للغة من التعريفات الدقيقة ، وقد سبق ابن جنى برؤيته هذه ، وتعريفه هذا ما توصل إليه علماء اللغة فى العصر الحديث [٤] ، كما سيتضح بعد .

ونجد فى تعريف ابن جنى هذا أهم العناصر ، التى يحتاج إليها الإنسان فى تصور اللغة ، مثل :

١ - مادة اللغة ، فاللغة تتكون من أصوات ، وهذا يؤكد الصيغة الصوتية للغة ، وليست هذه الأصوات التى تتكون منها الكلمات والجمل إلا رموزا أحلها الإنسان بموهبته محل الخواطر والأفكار وتختلف الرموز الصوتية عن سائر وسائل الاتصال الأخرى كالإشارات والعلامات .

---

[١] الخصائص : ١ / ٣٣ .

[٢] المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

[٣] المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

[٤] علم اللغة العربية ، د / محمود فهمى حجازى ، ص ٩ .

فالرموز الصوتية لا تتحدد بالزمن أو اللحظة ، التى تنشأ فيها ، ولكنها قد تعبر عن أمور ماضية أو حالية أو مستقبلة .

أما العلامات التى تصدر عن الحيوانات أو عن عناصر طبيعة فإنها ترتبط باللحظة أو الموقف الذى تنشأ فيه. [١]

٢ – **وظيفة اللغة** ، وقد سبق أن بينا أن ابن جنى كان أكثر دقة من المحدثين فى هذا الشأن فى قوله " عن أغراضهم " فالأغراض تختلف وتعدد على حسب الأفراد ، وعلى حسب الموقف والحالة ، وعلى حسب البيئة والمجتمع، وتلك هى القاعدة العلمية الذهبية التى تتمتع بالشمول والاطراد من جانب والبساطة من جانب آخر . [٢]

٣ – **اجتماعية اللغة** ، بمعنى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فلا توجد لغة دون مجتمع ، وهو ما عبر عنه ابن جنى بقوله : " كل قوم " إذ القوم بمعنى الجماعة ، فلكل قوم لغتهم ، يقول د / إبراهيم أنيس : " وهو – أى المجتمع – للغة كالتربة بالنسبة للزهرة ، أو الحبة ، فالحبة تكمن فيها جرثومة الحياة ، ولكنها لا تنبت إلا فى التربة ، وكذلك اللغة فى الإنسان ، إذ يولد المرء مستعدا للنطق والكلام، ولديه أجهزته وأعضاؤه ، ولكنه وحده منعزلا عن الناس لا ينطق ولا يتكلم ولا تنشأ له لغة ". [٣]

٤ - **عرفية اللغة** ، والمقصود بالعرفية اصطلاح الجماعة اللغوية على أن

---

[١] مدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / البركاوى ، ص ١٥ .

[٢] من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ٧١ .

[٣] اللغة بين القومية والعالمية ، ص ٢٩ ، ومدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / البركاوى ، ص ١٦ .

هذا الرمز الصوتى المعين هو لهذه الدلالة المحددة [١] ، أى أن أصحاب اللغة اتفقوا ، أو تقبلوا دلالة هذه الأصوات على معان معينة[٢] ، ويؤخذ هذا من قوله : " كل قوم " فكل قوم لغة تختلف عن لغة القوم الآخر وهكذا. [٣]

ويلاحظ – كما يقول د / عبد الله ربيع – : " أن هذا التصور لا يختلف كثيرا عن تصور عدد من اللغويين المحدثين فى الغرب ، أولئك الذين جاءوا بعد ابن جنى بقرون ". [٤]

يقول هنرى سويت فى تعريفه للغة : " التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات ". [٥]

إن هذا التعريف لا يعطى صورة كاملة لكل جوانب اللغة وعناصرها ، فهو لم يذكر وظيفة اللغة ولا دورها الاجتماعى ولا عرفيتها ، وإنما ذكر كونها أصوات وهذه الأصوات مؤتلفة فى كلمات ولا يذكر إلا وظيفة واحدة للغة وهى التعبير عن الأفكار ، وترك أهم وظيفة وهى التواصل بين المجتمع .

ويقول إدوارد سابير فى تعريفه للغة : " وسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة إرادية ". [٦]

لم يشمل تعريف سابير وظيفة اللغة الاجتماعية ، ولا عرفتيها ، فقد ركز

---

[١] أسس علم اللغة ، ص ٢١ .

[٢] علم اللغة العام أسسه ومناهجه ، د / عبد الله ربيع محمود ، ص ٢٦ .

[٣] وهذا على عكس ما يراه د / البركاوى فى كتابه : مدخل إلى علم اللغة الحديث ، ص ١٦ ، ١٧ .

[٤] علم اللغة العام أسسه ومناهجه ، د / عبد الله ربيع محمود ، ص ٢٦ .

[٥] المرجع السابق ، ص ٢٧ .

[٦] علم اللغة العام أسسه ومناهجه ، د / عبد الله ربيع محمود ، ص ٢٦ .

فى تعريفه على أن اللغة خاصة بالإنسان ، وقد أشار إلى ذلك ابن جنى فى قوله " كل قوم " وأنها نظام ، فاللغة ليست سلسلة من الوحدات الصوتية المتراصة كيفما اتفق ، بل إن ذلك يخضع لنظام دقيق فى بناء الكلمة والجملة. [١]

أما اللغة عند سيمون بوتر فهى : " نظام عرفى من الرموز الصوتية تستخدمه جماعة لغوية معينة بهدف الاتصال ". [٢]

لقد شمل هذا التعريف بعض عناصر اللغة ، وهى كون اللغة نظاماً وكونها عرفية ، وأشار إلى طبيعتها الصوتية ، كما ذكر وظيفة مهمة من وظائف اللغة، وهى تحقيق الاتصال بين أفراد المجتمع ، وهذه الوظيفة تدخل ضمن تعريف ابن جنى الأكثر مرونة وسعة لأن قول ابن جنى " يعبر " أى أن اللغة أداة تعبير ، وهو إشارة إلى ما يسميه المحدثون الوظيفة الاتصالية الإبلاغية [٣] أما باقى وظائف اللغة فقد أهملها تعريف بوتر ، على حين احتواها تعريف ابن جنى " عن أغراضهم " إذ الأغراض متنوعة بتنوع الإنسان والزمان والمكان .

بعد هذا العرض من التعريفات ، يعد تعريف ابن جنى أفضل ما وصل إلينا من التعريفات للغة ، وان وعى الأولين المتمثل فى ابن جنى لا يقل بحال عن وعى المحدثين ، فتعريفه بها يثير دهشة الباحثين المحدثين فهو على إيجازه يتضمن معظم الجوانب التى يتفق عليها المحدثون فى تعريف اللغة ، فهو يشير إلى الوظيفة التعبيرية للغة ، ويفصح عن كون اللغة ظاهرة اجتماعية ، كما يقرر أن اللغة أصوات ، وهذا ما أكده أبو علم اللغة الحديث فردينان دى سوسير فى تعريفه للغة أنها : " نظام من الرموز الصوتية أو مجموعة من الصور اللفظية تختزن فى

---

[١] من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، ص ٧٤ .

[٢] المرجع السابق ، ص ٧٢ .

[٣] المرجع السابق ، ص ٧٧ .

أذهان أفراد الجماعة اللغوية ، وتستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين، ويتلقاها الفرد عن الجماعة التى يعيش معها عن طريق السماع ". [١]

وفى النهاية يقول د / عبد الصبور شاهين : " ولم تستطع التعريفات الحديثة للغة أن تتجاوز هذا التعريف الموضوعى " .[٢]

[١] علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ص ٢٣ .

[٢] العربية لغة العلوم والتقنية ، ص ٣٧ .

خامسا : اللغة والكلام

لقد استطاع عالم اللغة فرديناند دى سوسير أن يقوم بعمل كان له أثر كبير فى اتجاهات علماء اللغة فى العصر الحديث ، وهو تمييزه بين مفهومين أو مظهرين للغة " اللغة والكلام " .

فدى سوسير يرى أن النشاط اللغوى له مظهران :

الأول : **اللغة** : وهى تمثل الظاهرة الاجتماعية لمجتمع معين ، كما أنها صورة ذهنية مشتركة موجودة فى كل دماغ ، أو على حد تعبير دى سوسير نفسه: " أو على الأصح فى أدمغة المجموع من الأشخاص ؛ لأنها (اللغة) لا توجد كلها عند أحد منهم ، بل وجودها بالتمام لا يحصل إلا عند الجماعة "[١]

الثانى : **الكلام** : وهو النشاط الفردى ، فهو التطبيق العملى للغة وهذا يختلف طبعا من شخص إلى آخر ومن فئة إلى أخرى فى قليله أو كثيره ، ولكن يربط بينها جميعا قواعد لغوية وسلوكية عامة ونظام عام يجعل منها لغة واحدة مفهومة فى المجتمع الواحد. [٢]

ولكى يوضح دى سوسير فكرته فإنه يشبه اللغة بمقطوعة موسيقية أو سيمفونية ، الكلام عنده بمثابة عزف هذه المقطوعة أو السيمفونية وإبرازها للعالم المحسوس ، كما شبه اللغة والكلام كذلك بلعبة الشطرنج ، فنظام اللعبة الذى يتعارف عليه اللاعبون هو بمثابة اللغة ، وتحريك القطع ، وممارسة اللعبة بمثابة الكلام. [٣]

وكان من أبرز من تأثر بنظرية دى سوسير العالم اللغوى الأميركى نوم تشومسكى فقد قسم النشاط اللغوى إلى :

---

[١] فى علم اللغة ، د / غالب المطلبى ، ص ٢٠ .

[٢] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١٠٨ .

[٣] مدخل إلى علم اللغة الحديث، د / عبد الفتاح البركاوى ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

١. الكفاءة اللغوية ، فهو ما يقابل اللغة عند دى سوسير .

٢. الأداء ، وهو التطبيق العملى للغة ، الكلام عند دى سوسير .

فالكفاءة اللغوية عند تشومسكى صورة تجريدية فى الذهن تعطى الفرد القدرة على التعبير بجمل جديدة لم يسمعها من قبل .

كما تعطيه المقدرة على الحكم بصحة التركيب والجمل ، أو عدم صحتها وذلك وفقا لقواعد اللغة .

أما الأداء فهو السلوك النطقى الحالى للإنسان ، والذى يتوقف بدوره على وجود المقدرة على التعبير عما يريده الفرد وفق قواعد اللغة ونظامها ، أو على خلاف ذلك .

فالأداء اللغوى عند تشومسكى عمل ، والكفاءة اللغوية حدود هذا العمل[١]

وقد تأثر علماؤنا العرب المحدثون بدى سوسير فى تفريقه بين اللغة والكلام ، فالدكتور / تمام حسان يذهب إلى أن الكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة والكلام يحس بالسمع نطقا والبصر كتابة ، واللغة تفهم بالتأمل فى الكلام فالذى نقوله أو نكتبه كلام ، والذى نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة ، فالكلام هو المنطوق ، وهو المكتوب ، واللغة هى الموصوفة فى كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها ، والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديا ، ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعية. [٢]

---

[١] علم اللغة ، د / محمود جاد الرب ، ص ١٩٤ ، و أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، ص ١١٦ .

[٢] اللغة العربية معناها ومبناها ، ص ٣٢ ، ومدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / البركاوى ، ص ٢٩ .

بين اللغة والكلام عند ابن جنى :

سبق أن ذكرنا تعريف اللغة عند ابن جنى ، أما الكلام عنده فهو : " كل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه ". [١]

وقد وضح ابن جنى المراد باللفظ بأنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاما كان أو ناقصا .

فالتام هو المفيد، أعنى الجملة وما كان فى معناها من نحو : صه ، وإيه. والناقص ما كان بضد ذلك. [٢]

<u>ونأخذ من تعريف ابن جنى للكلام :</u>

١. أن الكلام هو الألفاظ المنطوقة بالفعل فقوله: " مذل به " أى نطق به وأفشاه.

٢. أنه لابد من شرط الإفادة فى الكلام، ولا يتحقق ذلك إلا فى الجمل التامة ، وهذا يعنى أن وحدة الكلام الأساسية هى الجملة. [٣]

فابن جنى يتفق مع علماء اللغة المحدثين فى أن الكلام هو التطبيق العملى للغة ، الصورة الواقعية أو الفعلية للغة يظهر هذا من تعريفه السابق ومن ملاحظته البارعة التى عبر عنها بـ " مواقع الكلام " ، والتى تدل على أن الكلام لا يكون استرسالا ولا ترجيما ، ولو كان كذلك لكثر خلافه ، وانتشرت جهاته ولم تنقد مقاييسه ، ودليل ذلك تأمل العرب مواقع الكلام وإعطائهم إيّاه في كل موضع حقَّه وحِصَته من الإعراب عن مِيزة وعلى بصيرة [٤]

---

[١] الخصائص : ١ / ١٧ .

[٢] المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

[٣] يتفق ابن جنى هنا أيضا اتفاقا تاما مع المحدثين الذين يرون أن الجملة هى : وحدة الكلام ، أما اللفظ المفرد فهو : وحدة اللغة . مدخل إلى علم اللغة الحديث، ص ٢٧.

[٤] الخصائص : ١ / ٧٦ .

فهذه العبارة تدل على أن الكلام لا يفهم إلا إذا جاء متفقا مع نظام اللغة وأنه شئ واللغة شئ آخر ، إذ هو بمثابة التطبيق العملى لها .

فالكلام عند ابن جنى لابد أن يسير على شرط اللغة ، أو بعبارة حديثة الكلام عمل واللغة نظام هذا العمل .

نتبين من هذا أن ابن جنى قد أدرك أن هناك فرقا بين اللغة والكلام ، وأنه قد سبق المحدثين إلى ملاحظة أن اللغة نظام ، وأن الكلام تطبيق عملى لذلك. [١]

[١] مدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / البركاوى ، ص ١٧ : ٢٨ .

سادسا : علم الأصوات وابن جنى

وضع ابن جنى كتابا مستقلا فى علم الأصوات : " سر صناعة الإعراب " الذى يعد أول كتاب مستقل فى علم الأصوات فى العربية وربما فى كثير من اللغات أيضا [١] . ولابن جنى فى هذا الكتاب أمور عامة سبق فيها البحث الصوتى فى العصر الحديث :

فابن جنى أول من استعمل مصطلح " علم الأصوات " فى كتابه ، للدلالة على دراسة الأصوات والبحث فى مشكلاتها الصوتية ، على نحو ما جاء فى الدرس الصوتى الحديث ، ويبدو أن هذا المصطلح سابق للمصطلح الأوروبى المرادف له phonetics [٢].

وابن جنى أشار أيضا إلى العلاقة بين علم الأصوات وعلم الموسيقى ، عندما أراد إيضاح كيفية إنتاج الصوت اللغوى ، إذ يشبه جهاز النطق بالناى ووتر العود ، يقول ابن جنى : " وقد شبه بعضهم الحلق والفم بالناي ، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة ، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة ، وراوح بين عمله اختلفت الأصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة ، ونظير ذلك أيضا وتر العود ، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل ، سمعت له صوتا ، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه ، أدى صوتا آخر ، فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين ، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة ، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غفلا غير محصور تجده بالإضافة إلى

---

[١] علم الصوتيات ، د / عبد الله ربيع بالاشتراك ، ص ٦٧ .

[٢] علم اللغة العام ، القسم الثانى ، الأصوات ، د / كمال بشر ، ٦٨ .

ما أداه وهو مضغوط محصور أملس مهتزا ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته وضعفه ورخاوته فالوتر في هذا التمثيل كالحلق والخفقة بالضرب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق . وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة ، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا " [1].

و " جدير بنا أنى نقرر أنه ليس هناك تعبير أبرع ولا أوضح من الذى جاء به هذا العبقرى العربى "[2] ، فى إيضاح كيفية حدوث الصوت اللغوى من هذه الصورة التشبيهية الرائعة " الوتر فى هذا التمثيل كالحلق ... وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا " .

يقول د / عبد الله ربيع : " ولابن جنى فى هذا الكتاب – سر الصناعة – أيضا لمحات وإشراقات رائعة ، سبق فيها البحث الصوتى الحديث ... من ذلك إشارته الذكية إلى العلاقة بين علم الأصوات وعلم الموسيقى ، وشرحه العملى لطريقة خروج الأصوات ، حيث يشبه جهاز النطق بالناى ، وأعضاءه بأصابع العازف على فتحاته ، فكما أن حركات الأصابع تكيف الصوت وتضع نغماته ، كذلك تفعل أعضاء النطق فى إنتاج أصوات اللغة عبر ممرها الطويل ". [3]

---

[1] سر صناعة الإعراب : ١ / ٩ .

[2] الأصوات ، د / بشر ، ص ١٠٣ .

(٣) علم الصوتيات ، ص ٦٨ .

الخاتمة

الحمد لله الذى تتم به الصالحات ، والصلاة والسلام على رسول الرحمات وعلى آله وصحبه أولى الفضل والهبات .

أما بعد

فبفضل الله (ﷻ) قد انتهيت من هذا البحث : (دور علماء العرب فى علم اللغة " ابن جنى نموذجا") ، وقد توصلت فيه إلى نتائج من أهمها :

١. دور علماء العرب المشرق فى بناء صرح الحضارة فى العصر الحديث .
٢. لم يقتصر نظر علماء العرب القدامى فى النظر إلى اللغة العربية فقط بل تعدى ذلك إلى النظر إلى اللغة بالمعنى العام ، اللغة كظاهرة اجتماعية وإنسانية عامة .
٣. اللغة تجمع بين الفطرية والاكتساب ، وهذا ما جعل ابن جنى يتردد فى كون اللغة هبة فطرية من الله أم اصطلاحية مكتسبة .
٤. كان رأى ابن جنى فى نشأة اللغة عن طريق المحاكاة والتقليد هو الرأى الأقرب إلى القبول والأدنى إلى الصحة فى العصر الحديث .
٥. استطاع ابن جنى بعبارة موجزة أن يجمع كل وظائف اللغة فى قوله: " عن أغراضهم " ، فالتعبير " عن أغراضهم " " يتسع لكل ما نستهدفه وما نريده من التعبير ، وما نقصده من الكلام ، وما نرمى إليه من القول " .
٦. كان تعريف ابن جنى للغة مثار إعجاب شديد من اللغويين المحدثين ، فقد شمل كل عناصر اللغة ، " وما أظن أن تعريفا للغة جاء بعد ابن جنى يعطى أكثر من هذا التعريف فى اتساع الأفق والنظر العام " .

٧. سبق ابن جنى علماء اللغة المحدثين فى أن اللغة فى معناها العام : الصورة الذهنية ، أو الظاهرة الاجتماعية ، والأمر الثابت الجوهرى ، وأن الكلام هو : التطبيق العملى للغة الصورة الواقعية أو الفعلية للغة .

٨. يرى ابن جنى أن الجملة هى وحدة الكلام ، أما اللفظ فهو وحدة اللغة ، وهو ما آرتاه علم اللغة فى العصر الحديث .

٩. " ابن جنى أول من استعمل مصطلح " علم الأصوات " فى كتابه، للدلالة على دراسة الأصوات والبحث فى مشكلاتها الصوتية ، على نحو ما جاء فى الدرس الصوتى الحديث ، ويبدو أن هذا المصطلح سابق للمصطلح الأوروبى المرادف له phonetics "

١٠. " ليس هناك تعبير أبرع ولا أوضح من الذى جاء به هذا العبقرى العربى " " ابن جنى " فى إيضاح كيفية حدوث الصوت اللغوى من هذه الصورة التشبيهية الرائعة " الوتر فى هذا التمثيل كالحلق ... وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا " .

١١. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً فى كل مقال وحال .

أهم المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم** (**جل من أنزله**) .

١. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د / نايف خرما ، عالم المعرفة ، الكويت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

٢. الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية ، د / ميشال زكريا ، ط المؤسسة الجامعية ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ .

٣. تاريخ آداب اللغة العربية ، مصطفى صادق الرافعى ، ط دار الأخبار ، مصر ١٩١١م .

٤. الخصائص لابن جنى، تحقيق / محمد على النجار ، ط دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، وبتحقيق / عبد الحكيم بن محمد ، ط المطبعة التوفيقية .

٥. دراسات فى فقه اللغة ، د / صبحى الصالح ، ط دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ١٩٨٩م .

٦. دلالة الألفاظ، د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

٧. سر صناعة الإعراب لابن جنى، تحقيق د/ حسن هنداوى ، ط دار القلم ، دمشق ١٩٨٥م .

٨. سوسير رائد علم اللغة الحديث ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ط دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٠م .

٩. العربية خصائصها وسماتها ، د / عبد الغفار حامد هلال ، ط الرابعة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

١٠. علم الصوتيات ، د / عبد الله ربيع بالاشتراك ، ط مكتبة الطالب الجامعى ، الرياض ١٩٨٨م

١١. علم اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ط التاسعة .
١٢. علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د / عاطف مدكور ، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٧م .
١٣. علم اللغة العام أسسه ومناهجه ، د / عبد الله ربيع محمود ، مؤسسة الزهور للطباعة، القاهرة، ط الأولى١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
١٤. علم اللغة العام (الأصوات) ، د / كمال بشر ، ط دار المعارف ، ط السابعة ١٩٨٠م .
١٥. علم اللغة العربية مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية، د / محمود فهمى حجازى ، ط دار الثقافة للطباعة والنشر .
١٦. علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، د / محمود السعران، ط دار الفكر العربى
١٧. فقه اللغة العربية ، د / إبراهيم نجا ، ط السعادة ١٩٧٤م .
١٨. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، جورجى زيدان ، القاهرة ، ط الثانية .
١٩. فى فقه اللغة العربية ، د / ناجح عبد الحافظ مبروك ، مطبعة الأمانة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٢٠. لسان العرب لابن منظور ، تحقيق / نخبة من العاملين بدار المعارف ، ط دار المعارف .
٢١. اللغة لفندريس ، تعريب / عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ، ط ١٩٥٠م.
٢٢. اللغة بين القومية والعالمية، د / إبراهيم أنيس ، ط دار المعارف.
٢٣. اللغة العربية معناها ومبناها ، د / تمام حسان ، ط عالم الكتب .
٢٤. اللغة والمجتمع .. رأى ومنهج للدكتور / محمود السعران ، ط دار

المعارف ١٩٦٣م .
٢٥. مباحث فى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، د / نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعية ، الإسكندرية ٢٠٠١م .
٢٦. محاضرات فى فقه اللغة ، د / عيد الطيب ، ط الأمانة .
٢٧. مدخل إلى علم اللغة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ط دار الفكر العربى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .
٢٨. مدخل إلى علم اللغة الحديث ، د / عبد الفتاح البركاوى ، ط الرابعة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
٢٩. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، د / رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجى بالقاهرة، ط الثالثة ١٤١٧هـ.
٣٠. المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ، تحقيق / فؤاد علي منصور ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٩٩٨م .
٣١. من أسس علم اللغة ، د / محمد يوسف حبلص ، الناشر دار الثقافة العربية ، ط الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .
٣٢. من ملامح المنهج العلمى دراسة تطبيقية عند علماء اللغة والتجويد ، د / عبد الله ربيع محمود ، دون طبعة وتاريخ .
٣٣. موجز تاريخ علم اللغة فى الغرب لروبنز ، ترجمة د / أحمد عوض ، ط الكويت ١٩٩٧م .
٣٤. نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ، د / على عبد الواحد وافى ، ط دار نهضة مصر ، ط الثالثة .
٣٥. الوضع اللغوى فى الفصحى المعاصرة ، د / محمد حسن عبد العزيز ، ط دار الفكر العربى ، القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .